# من مثقف الحداثة إلى مثقف السيولة عند زيجمونت باومان

## *From the intellectual of modernity to the intellectual of fluidity at Zygmunt Baumann*

**مراد واحك[1]***

[1] جامعة خميس مليانة (الجزائر)، m.ouahek@hotmail.com

تاريخ الاستلام: 2023/07/04 تاريخ القبول: 2024/03/18 تاريخ النشر: 2024/04/24

**ملخص:** تأسست الحداثة على مفاهيم وتصورات صلبة، جاءت كبديل عن التصورات الدينية المسيحية في القرون الوسطى، كان المثقف هو الذي يقوم بمهمة إنتاج القيم والأفكار والمعاني لهذا العصر الجديد الذي تتميز أفكاره بالمتانة والوضوح والصلابة. لكن مع الحداثة السائلة، وعصر العولمة لم يعد الزمن الجديد يحتاج فيه إلى مثقفين بالمعنى الذي كان سائدا في عصر الحداثة، أي إلى المثقف الرسالي والمناضل الذي يعمل على نشر رسالة سامية وفاضلة، فالعولمة في زمن الرأسمالية التقنية الفائقة، أصبغت على الحياة بسيلان مفاهيمي وقيمي بحسب تعبير زيجمونت باومان، حيث ذابت المفاهيم الواضحة وانصهرت ولم يعد هناك قيم ومعاني وأفكار محددة بعينها ومضبوطة ومتماسكة، فلم يُبقي التحديث أي شيء صلب وثابت، من هنا تحول المثقف من مثقف صلب يدعو إلى قيم ومبادئ صلبة إلى مثقف سائل يدعو إلى الحفاظ على الوضع الراهن الذي تحتكره الشركات الكبرى

**كلمات مفتاحية:** الحداثة، السائلة، الصلب، المثقف، الرأسمالية، العولمة.

**Abstract:**

Modernity was founded on solid concepts and perceptions, which came as an alternative to the Christian religious perceptions of the Middle Ages. It was the intellectual who undertook the task of producing values, ideas, and meanings for this new age, whose ideas were characterized by durability, clarity, and solidity. But with liquid modernity and the era of globalization, the new era no longer needs intellectuals in the sense that prevailed in the era of modernity, i.e. the missionary intellectual who works to spread a sublime and virtuous message. According to the expression of Zygmunt Baumann, where clear concepts melted and fused, and there were no longer specific, controlled and coherent values, meanings, and ideas, so modernization did not leave anything solid and stable, due to the policy of the major capitalist companies.

**Keywords:** Modernity; liquid; steel; intellectual; capitalism; globalization.

*المؤلف المرسل

## 1. مقدمة:

لقد شكّل حملة العلم والمعرفة عبر العصور محرّكا للتاريخ، من خلال الأفكار التي يتصورونها حول الواقع المأمول، وقد يحمل هذه الأفكار قادة وزعماء محاولين تجسيدها على أرض الواقع، فيتغير بذلك مسار المجتمع والتاريخ. فحركة المجتمع لا تكون ذاتية الحركة، إلا بما يحلم به أصحاب المعرفة لتوجيه حركته نحو هذا المسار، أو ذاك . وسواء كان هذا المثقف عالم دين، أو فيلسوف، أو متصوف، أو شاعر، فمن خلال ما يقترحه من بدائل معرفية، أو سياسية، أو أنماط حياتية جديدة كرؤى بديلة تقطع، أو تحسن من الوضع القائم، فإنّ أفكاره وأحلامه ستصبح هي الواقع الجديد. فالمثقف هو الذي يحمل في ذهنه للإمكانات معرفية، وخيالية، وأنماط حياتية تقدم نفسها كبديل عن الواقع المعاش وتنتظر أنْ تجّسد في الواقع من خلال الفعل. وهكذا نُظر إلى المثقف بوصفة المخلص والمنقذ والمبشّر بما يمتلكه من معارف وأفكار ورؤى ثاقبة تتجاوز الواقع الراهن. ولعب المثقف في عصور الحداثة في أوروبا دورا جوهريا وأساسيا في نقل المجتمع الأوروبي من حالته الظلامية إلى حالة الحداثة والتنوير، وقد سمي عصر التنوير بذلك الاسم، بسبب ارتباط التنوير بفلاسفة وعلماء وشعراء متنورين ينشرون نور المعرفة العقلية في مكان الدجل والخرافة. كان المثقف هو الفيلسوف والعالم والشاعر والرسام وعالم الاجتماع والناقد والموسوعي، كانت المهمة الملقاة عليه هي تحويل الناس من حالة الظلام إلى حالة النور، وكان المثقف لأجل ذلك يلقى الكثير من الأذى والمعاناة في سبيل تحقيق مشروعه، ولكن في الكثير من الحالات واغلبها احتضنت الدولة المثقف وجعلته أداة لخدمة مشروعها التنويري هذا في أوروبا، أما في العالم العربي، فقد حمل المثقف في زمن الاستعمار رسالة التحرير والتعليم، فكانت جمعية العلماء المسلمين في الجزائر تدافع عن أركان الهوية الوطنية وتعمل على تخليص الدين من الخرافات، وفي مصر ظهر المنفلوطي ومصطفى صادق الرافعي وطه حسين.....وآخرون يؤدون نفس الرسالة وهي التحرير والتنوير والتجديد، وظهر مثقفون عرب في المهجر كجبران وأبو ماضي ومهمتهم أيضا: محاربة الاستبداد والاستعمار والجهل، وهكذا كان المثقف في العالم العربي مناضلا ضد عدة جبهات: الاستعمار والجهل والتخلف. لكن هذه المهمة التي حملها المثقف الغربي أو العربي تغيرت في زمن العولمة، فلم يعد الزمن الجديد يحتاج فيه إلى مثقفين لنشر أفكاره ومبادئه، أو بعبارة أدق: لم تعد العولمة تحتاج إلى مثقفين بالمعنى الذي كان سائدا في عصر الحداثة، وخاصة بالمعنى الذي كان سائدا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وحتى منتصف القرن العشرين، فالعولمة تملك من الوسائل والأدوات جعلها تستغني عن مفهوم المثقف الرسالي والمناضل الذي يعمل على نشر رسالة سامية وفاضلة، فالعولمة هي زمن الرأسمالية التقنية الفائقة، عندما تحول العالم إلى عالم وفضاء شبكي تواصلي مرئي، وعندما أصبح البعد المكاني بغير أهمية، أصبحت الحياة فيها سائلة بحسب تعبير زيجمونت باومان، إذْ ذابت المفاهيم الواضحة وانصهرت ولم يعد هناك أشياء محددة بعينها، لم يُبقي التحديث أي شيء صلب وثابت، من هنا تحول المثقف من مثقف صلب يدعو إلى قيم

ومبادئ صلبة إلى مثقف سائل يدعو إلى الحفاظ على الوضع الراهن الذي تحتكره الشركات الكبرى، والإشكال المطروح هو: ما هي قراءة زيجمونت باومان لسبب التحول الجوهري التي حدث في مفهوم رسالة المثقف في زماننا الراهن، هل يتعلق الأمر بسبب ذاتي يتحمل مسؤوليته المثقف، أم أنّ الأمر يتعلق بأسباب بموضوعية خارجية. والسؤال الآخر، هل بالإمكان أن نتحدث عن المثقف اليوم، كما نتحدث عن المنفلوطي وطه حسين وابن باديس، وايضا هل يمكننا أن نتحدث اليوم عن هيجل وكانط في أزمنتنا الجديدة.؟

فرضيتنا الرئيسية أنّ استعانة الاقتصاد بالتقنية الفائقة ورقمنة نمط حياة البشر استدعى التخلي عن مفهوم المثقف التقليدي ليحل محله المؤثرون والمشاهير، واستدعى أيضا التخلي عن القيم الأخلاقية والإنسانية الصلبة والمتينة لتحل محلها أخلاق استهلاكية مؤقتة. ويهدف بحثنا إلى تسليط الضوء على هذا التحول الذي يعرفه المثقف واستخدمنا في بحثنا المنهج المقارن والمنهج التحليلي.

## 2. الحداثة الصلبة والحداثة السائلة:

حتى نستطيع أنْ نعرف وضعية المثقف اليوم، لا بد أنْ نشير إلى مفهومي الحداثة الصلبة والسائلة، فقد ارتبط مفهوم المثقف جوهريا وبالضرورة بخصائص كل مرحلة. ففي مرحلة الحداثة الصلبة يرى زيجمونت باومان أنّ التحديث، ارتبط في أوّل الأمر بإعادة النظر في جميع المفاهيم التي أسست التفكير في القرون الوسطى، وكان من ميزة تلك المفاهيم: التصلُّب والقداسة والمتانة، وحافظت هذه المفاهيم على تلك المميزات وعلى استمراريتها عبر القرون، انطلاقا من سلطة الكنيسة والدولة، فالبابا هو ممثل الرب على الأرض، فهو الذي يحدد المفاهيم الصائبة، والمفاهيم الخاطئة. وكان كل خروج عن النص / أو الخطاب الكنسي يُعد هرطقة، أو كفرا، ولن يُمنح لصاحب الهرطقة أي خلاص، لأنّه اعتنق أفكارا تخرج عن الإطار المعرفي والقيمي للكنيسة. كانت الثقافة في العصور الوسطى متكلّسة، صلبة، متينة، مسيّجة، تحميها سلطة الكنيسة من خلال المثقف الذي كان يرعى القيم الدينية والاجتماعية، وكان معنى المثقف السائد هو ذلك المتعلم المتمكّن من الثقافة الدينية أولا، ثم الثقافة الدنيوية كالفلسفة والعلوم والفنون المختلفة. هكذا سعى المثقف إلى حماية مركزية القيم الدينية والكنسية من خلال الدفاع عنها بكتاباته ضد كل الهرطقات والأفكار المخالفة التي يمكن أن تهدد الانسجام الثقافي الاجتماعي. فالمثقف يمثل العقل الذي له "مهمة بعد الإيمان، هي تفهُّم العقائد الدينية، وهنا الإيمان سابق على التعقل، مُعين له، فإنه يطهر القلب، بحيث نقول: آمن كي تتعقل"[1] يجب أن نشير إلى أنّ القيم التي دافع عنها المثقف في القرون الوسطى، كانت تمنح للإنسان الأمان واليقين، ففي اليقين يطمئن الإنسان حتى ولو كان ما يؤمن به خاطئا.

مع حركة الحداثة تعرّضت المفاهيم المشكّلة للفضاء الثقافي والاجتماعي والديني إلى نقد من طرف مثقفي العصر الجديد، من اجل استبدالها بمفاهيم وبقيم جديدة. هذا النقد لا يعني إلغاء جميع التصورات والمفاهيم والقيم الموروثة من الأساس، بقدر ما يعني إعادة تأسيس اليقين من جديد، على أسس جديدة لكيلا يبقى الإنسان في متاهة، وعدمية وحالة من عدم اليقين، يتعلق الأمر بإعادة ترتيب العلاقة بين الله والإنسان، بين النقل والعقل، بين الدولة والكنيسة. فالتحديث هو إعطاء أهمية قصوى لمنتجات العقل. وإعادة ترتيب المفاهيم والقيم، لصالح الإنسان والعقل والحياة، ولكنه لم يفكّك القيم من الداخل لدرجة العدمية. فالتحديث " لم يكن الهدف منه التخلص من المواد الصلبة مرة واحد والى الأبد، ...بل كان الهدف تطهير الساحة لظهور مواد صلبة جديدة معدّلة واستبدال بالمنظومة المتوارثة للمواد الصلبة المعيبة والناقصة منظومة أخرى تحظى بتعديل فائق ..فقد وجدت الأزمنة الحديثة المواد الصلبة في عالم ما قبل الحداثة في حالة متقدمة نسبيا من التفكك والتفسخ، وكان من أقوى الدوافع التي عجّلت بإذابتها الرغبة في اكتشاف، أو ابتكار مواد صلبة من أجل التغيير، تدوم صلابتها بحيث يثق المرء بها ويعوّل عليها.صلابة تمكّن المرء من التنبؤ بحركة العالم ومن ثم القدرة على قيادته وإدارته"[2]

هكذا عمل المشروع الثقافي التنويري الغربي على إعادة تأسيس المجتمع والدولة والفرد، على أسس صلبة ومتينة وعلى أسس واضحة، فالمثقفون هم من يُحدّدون معايير الجمال والقبح، وهم الذي يُحدِّدون العمل الراقي من العمل الرديء، وبعبارة أخرى: كان على عاتق المؤسسات الثقافية أنْ تحدِّد بشكل واضح وحاسم مضمون الهوية الغربية الجدية " فمشروع التنوير استخدم الثقافة باعتبارها نشاطا يشبه فلاحة الأرض، أداة أساسية في بناء أمة ودولة ... ، وفي الوقت نفسه استأمن الطبقة المتعلمة على هذه الأداة"[3]. لقد كان المثقف، والمعلم، والقائد والمراكز الثقافية المختلفة هي التي تقوم بعملية صناعة الثقافة وتوجيهها، إنهم يمثلون وظيفة الفلاح الذي يزرع الأرض بما يشاء.

كان الفرد والمجتمع يدخلان ضمن نطاق تفكير المؤسسات الرسمية، حيث توضع لهما سياسات خاصة من الدولة، التي تعتمد وبشكل أساسي وحاسم على ما يصل إليه المثقفون والمفكرون والفلاسفة من تصورات وتحديدات لملامح الشخصية الفردية والاجتماعية السوية، ويحددون أيضا مبادئ الهوية الوطنية وهوية الأمة، من خلال نظرياتهم ومشاريعهم الفكرية والثقافية، كانت كتاباتهم ترقى لدرجة الاحترام والتقديس، فقد حلت مكانة المفكر والعالم والشاعر، مكانة رجال الدين. وإذا كان الوحي والنص الديني قد توقفا عن صناعة المجتمع الجديد ومنحه ذلك الأمل واليقين، أصبح المثقف الحداثي هو الذي يقوم بهذه المهمة الجديدة. كانت مهمة رجال التحديث: تشييد ثقافة وتبليغها للناس، لتأسيس هوية فردية، أو جماعية تُشعر الناس والإفراد بالأمان واليقين وبالثقة. هكذا كان مفهوم الثقافة فهو " ضمن مجموعة من المفاهيم التي تضم مصطلحات مثل: الفلاحة، والزراعة، وتربية الحيوانات، وجميعها مصطلحات تشير إلى التحسين.... فما يفعله الفلاح بالبذور عبر الرعاية اليقظة من زرعها إلى حصادها، يمكن بل ويتوجب فعله بالبشر من المهد إلى اللحد، عبر التعليم والتدريب، فالبشر لا يولدون بل

يصنعون. إنّهم بحاجة أنْ يصيروا إلى بشر. وفي أثناء هذه العملية لا بد أنْ يرشدهم أناس آخرون، أناس لهم باع في فن تعليم البشر وتدريبهم" [4]هكذا لم يحمل الفرد هم البحث عن هوية معينة، بل هي موجودة. في المدينة التي ولد بها، وفي الجماعة التي ينتمي إليها، ووفي الوطن الذي يعيش فيه. وفي المؤسسة التعليمية التي تعلّم فيها. وفي المجلات والجرائد التي يطالعها وفي الحزب الذي ينتمي إليه. أما من يقود هذه الجماعات والمؤسسات فهم المثقفون والمفكرون وقادة الرأي. فهم من يتحكمون في صناعة الهوية الشخصية للفرد. بذلك عمل المثقف على صياغة عالم ثقافي يجد فيه الناس هوياتهم، وللأمة مسارها وهويتها كبديل عن الثقافة الدينية القديمة.

لكن الحداثة في بعد منتصف القرن العشرين، لم تضع حدا لهذه الإذابة المستمرة للأسس وللقواعد وللتصورات التي أنتجها عصر التنوير والحداثة، ولم ترسم خطة محددة من أجل الإبقاء على ثوابت معينة، ليأخذ منها الإنسان اليقين والأمان والطمأنينة، بل استمرت في نقد ما هو ثابت، ولما هو قطعي من التصورات والمفاهيم التي تأسست عليها الحداثة في بداياتها. فالاستمرار في النقد والإذابة والتجاوز، خلق حداثة سائلة، مائعة، وهشة ففي هذا النظام الجديد من الحداثة " المرونة هي الثابت الوحيد، والزوال هو الدوام الوحيد، والسيولة هي الصلابة الوحيدة، واللايقين هو اليقين الوحيد" (السمعو، 2020). يتعلق الأمر عند باومان " بالتحديث الوسواسي القهري الإدماني، إنّه يكمن في الإذابة المتواصلة والإحلال السريع للبنى والنماذج الذائبة"[5] ولم يعد هناك مفهوم ثابت ومحدد إلا وقد طاله النقد والتفكيك وبدأنا نسمع بنقد المثقف، نقد النص، نقد العقل، نقد الهوية، نقد المنطق، نقد الخطاب، نقد المقدس...فأصبح المفهوم الجديد لا يطابق ذاته ولا يحمل مدلول المعنى الراسخ والمتداول بل انتشرت موجة الزحزحة والتفكيك لكل المفاهيم المؤسسة للخطاب وللدين والحياة، وهذا ما خلق حالة من حالة اللايقين والشك في كل شيء.

ولكن لماذا سمى زيجمونت باومان الحداثة الحالية بالسائلة، يجيب صاحب كتاب الثقافة السائلة بقوله:" تتحرك الموائع بسهولة، إنها تجري، وتنسكب، وتنساب، وتتناثر، وتنهمر، وتتسرب، وتفيض، وترذ، وتتقطر، وتنز، وتسيل، فلا يسهل ايقافها كما هي الحال مع المواد الصلبة"[6]. من خلال هذه الحداثة السائلة، ستتولد عنها ثقافة سائلة، فالمفاهيم فيها مائعة، وتعريفات للجمال هشة، وليس هناك أي مفهوم، وهكذا ستولّد الحداثة السائلة وضعا للثقافة وللمثقف غير الذي كان سائدا في عصر التنوير وفي القرن التاسع عشر عندما كان المثقف هو الذي يؤسس لمفهوم الدولة والأمة والفرد والهوية .

## 3. المثقف بين النموذج الفوردي و نموذج بيل غيتس:

ارتبط مفهوم المثقف ودوره في المجتمع الغربي بصيرورة الرأسمالية، وسنجد أنّ هناك علاقة بين مهمة المثقف ومسار وتوجّه المجتمع الرأسمالي، فقد ارتبطت الحداثتين الصلبة والسائلة بقوى الواقع والممثلة في الشركات الرأسمالية، فالرأسمالية عرفت مرحلتين وهما: الحداثة الثقيلة والحداثة الخفيفة،

أما الحداثة الثقيلة فهي تلك التي ترتبط بعصر الوسائل الآلية، والآلات الثقيلة، والأراضي الشاسعة.إذْ كان يُنظر إلى الآلة الضخمة والمصنع الكبير الذي يحتوي على آلات كبيرة، ووسائل ثقيلة، ويوظِّف حشود كبيرة من العمال، كان ينظر إلى هذه الصناعة وإلى هذا النوع من الاقتصاد بوصفهما قوة حقيقية. فالحداثة الثقيلة هي عصر " محرِّكات السكك الحديدية الضخمة، والسفن العملاقة العابرة للمحيطات، كان غزو المكان آنذاك هو الهدف الاسمي ...فكانت الأرض من بين أبرز الأمور التي شغلت العصر الحديث "[7]. مثّل المصنع الفوردي هذا اللقاء بين شساعة الأرض، وحشود العمال الغفيرة، والآلات الكبيرة الضخمة، والزمان الرتيب المنظم من أجل الإنتاج، والعلاقة الأبدية بين العامل، وصاحب رأس المال " فلم يكن لرأس المال ولا العمال رغبة في الحركة أو قدرة عليها" [8]والواضح أنّ الحداثة الثقيلة ستحتاج إلى فكر صلب وتصورات متينة من أجل إنجاح مشروعها الاقتصادي والتحديثي، وسيكون المثقف هو الذي يقوم بهذه المهمة في انتاج ثقافة ومعرفة تقوم في بنيتها على الصلابة والمتانة.

في مقابل نموذج فورد لصناعة السياراتHenry Ford Company، هناك نموذج بيل غيتسWilliam Henry Gates، وهو عصر الرأسمالية الخفيفة أو الرأسمالية المعلوماتية، فلم يعد للمكان أهمية، فيمكن لأي شخص أنْ يعمل عن بعد، كما أنّ علاقة العامل بالمكان، وبصاحب العمل لم تعد مضمونة ويقينية، فيمكن أنْ يُسرّح العامل من وظيفته جرّاء خسائر غير متوقعة للشركة، وهو عصر انتقال رأس المال الشركات والأفراد عبر الدفع الالكتروني، أي يتم تسليم وتلقي الأموال عن بعد بدون حضور المعني، فالصفقات، والشراء، والبيع كلها عمليات تتم الكترونيا. بذلك تغير مفهوم الزمان والمكان " ففي عالم البرمجيات الذي يسير بسرعة الضوء، يمكن قطع المسافات من دون وقت، بالمعنى الحرفي للكلمة، حيث انعدم الاختلاف بين بعيد جدا وقريب جدا، ولم يعد المكان يحدُّ الحركة، ولا أثارها وتراجعت أهميته، أو انعدمت تماما" [9]تزامن مع الثورة المعلوماتية ظهور ثورة في موضة الأشياء وعرفت تجديد ثوري في أشكالها، واستندت الموضة في الترويج لنفسها على وسائل الاتصال والمعلومات، وقد أصبح هناك ظهور شبه شهري، أو يومي للموضات المختلفة: تجديد ديكورات المنازل والغرف، تجديد في الهواتف والحواسيب، وأشكال جديدة للسيارات، وإنتاج نوعية جديدة من الأفلام والمسلسلات، وموضات جديدة للألبسة، وشركات تعلن عن كريمات جديدة لعلاج بشرة الجلد، وآخر مستجدّات عمليات التجميل....إلخ. فالثورة التقنية سرّعت من زمن الإنتاج، وقد أصبح كل شيء يُنتج بسرعة، وقد أدّى التنافس بين الشركات في عرض أحسن الخدمات والسلع، إلى التنافس في تبديل وتغيير الخدمات والسلع في أسرع وقت، ومن نتائج هذا التنافس، تسارع في وتيرة الحياة، فما كان يوجد في السوق في العام الماضي لم يعد يوجد في هذا العام، وسيارات العقد الماضي، قد تم تغيير شكلها الخارجي بالكامل. **هذا التسارع من وتيرة الحياة أحدث في الإنية الإنسانية قلقا من أجل مواكبة هذا التسارع**. "ومن الواضح أنّ تحول التركيز من التملك إلى نبذ الأشياء وتركها والتخلص منها يناسب تماما منطق السوق الاستهلاكي، فالمستمسكون بموضة قديمة من الملابس وأجهزة الكومبيوتر والهواتف النقالة هم بمثابة كارثة على

اقتصاد يتمثل اهتمامه الرئيس وشرط بقائه الضروري في طرح سريع متسارع للمشتريات في عالم النفايات، فالعمود الفقري لهذا الاقتصاد هو التخلص السريع من النفايات" [10]

هكذا سيطرأ تحول في مفهوم الثقافة عند الإنسان الحالي، بسبب الانتقال الجوهري الذي عرفته الرأسمالية، فلم تعد الرأسمالية الخفيفة تهتم بالقيم المطلقة، ولا بأهمية الحدود بين الخطأ والصواب، وبين ما يجب فعله، وما يجب اجتنابه، فزمن المفاهيم الصلبة والتعريفات الحدية انتهى، وسينال أمر الإذابة والصهر مفاهيم: المثقف والداعية والحزب والايدولوجيا والثقافة على نحو عام " فما حدث هو الانتقال من الرأسمالية الثقيلة إلى الرأسمالية الخفيفة، إنما هو تفكك المكتب السياسي القادر على منح سلطة مطلقة للقيم التي أقرتها المحاكم العليا، تلك القيم التي أنشئت لإصدار أحكام غير قابلة للاستئناف فيما يتعلق بالغايات التي تستحق أنْ يسعى المرء إليها"[11]. **فالرأسمالية الراهنة لم تعد تهتم بمعايير الإنسان الأخلاقية والقيمية والجمالية، إنّما تُرك الإنسان لوحدة ليختار ما يريد، وما يهواه، بل إنّ المعايير والأخلاق، وقواعد الخطأ والصواب تأتي ضد منطقها في الربح والتجارة والتسويق. فهمُّها إنتاج إنسان يشتري ما تنتجه من سلع، أمّا الأخلاقيات المتعلقة بهوية الفرد، فليست من اهتماماتها.** هكذا لم يعد لهوية الأفراد أو الجماعات أي موجّه فوقي يرسم لها مسارها، ولا أي سلطة تتكئ عليها في استلهام مبادئ العمل والنظر. " فلما اختفت السلطات العليا التي تتعهد بانتظام العالم، وحراسة الحد بين الصواب والخطأ، صار العالم مجموعة لامتناهية من الإمكانات: وعاء يفيض بفرص كبيرة لا تعد، ولا تحصى لم تغتنم بعد، أو أخفق الناس في اغتنامها بالفعل. فما أكثر الإمكانات التي تعجز أيّة حياة فردية مهما كان لها من عمر مديد، وروح مغامرة، وعمل دؤوب، عن استكشافها، أو مواكبتها. وهكذا جاءت الفرص اللامتناهية لتسد الفراغ الذي أحدثه اختفاء السلطة العليا" [12]

فغياب سلطة عليا تسهر على رعاية الفرد من حيث توجهاته الفكرية، والعملية، ترك الفرد أمام مجموعة من الإمكانات والخيارات في الاستهلاك، فهمه الوحيد ليس الإجابة عن سؤال: ما الذي يجب عليّ أنْ أفعله؟ بل صار سؤالا استهلاكيا وهو: ماذا يجب عليّ أنْ اختار من الإمكانات المتاحة؟ **أصبحت الهوية مشغولة بهم سؤال الاستهلاك وليس بسؤال القيم، أو هكذا تم أو أُريد توجيهها.** فقد أُخرج الفرد من أي سلطه يعتمد عليها في أخذ قراراته، أو يأخذ منها مشورته. فقد فتحت الحداثة المائعة مجموعة من الخيارات والإمكانات أمام الفرد. كل خيار وإمكان لا يجب أنْ يتمتع بصفة بقاء الصلاحية للأبد، بل يجب أنْ يكون قابلا لانتهاء الصلاحية حتى يسمح للخيارات الأخرى للمنافسة وللوجود، وأيضا حتى يكون الفرد في سعي دائم ومتواصل في التفكير في إمكانات وخيارات جديدة [13]

خلق الكثير من فرص الاستهلاك، والخيارات الكثيرة الممكنة للمرء، بالدرجة التي تفوق توقعه ، حوّل الفرد إلى شخص يحاول أنْ يجرِّب بقدر المستطاع، ويحاول أنْ يعيش جميع الخيارات. صحيح أنّ وجود الكثير من الخيارات أمام الفرد تشعره بنوع من الشعور بالحرية بأنْ يصير أي فرد يريد ولكن الفرد

عندما يتلقف ويعيش هذا الإمكان وهذا الخيار، وعندما يحققه على أرض الواقع، يعيش وضعا بائسا وهو الشعور بالملل والزجر، لذلك فهو يسعى دائما إلى التخلص من هذا الخيار الذي يعيشه الآن، ويبحث عن شهية في إمكان آخر " فالوعي بأنّ اللعبة مستمرة، وأنّه مازال الكثير ليحدث، وأنه من المستبعد انتهاء مسلسل عجائب الحياة، إنّما هو وعي تتلذذ به النفس أيّما تلذذ، وترتوي به أيّما ارتواء، ولكن يراودها الشك دائما بأنّه لا يوجد شيء من الأشياء التي يجربها المرء ويمتلكها يحظى بحصانة من التلف، أو بضمان البقاء أو الدوام " [14] .هكذا تم تحويل مفهوم السعادة من ممارسة تذوق الحياة على نحو عميق، بالاكتفاء بخيار واحد، والاستمتاع به على نحو كامل الشيء الذي يمنح النفس الراحة والهدوء والاطمئنان والأمان، إلى سعادة يتحدد معناها: في الرغبة في تجريب مختلف الإمكانات والخيارات. ولكن انطفاء هذه اللذة المؤقتة للسعادة يصاحبها اللايقين والخوف والاضطراب والقلق

## 4.دور المثقف في زمن الحداثة الصلبة:

لقد كانت الحداثة الصلبة ترسم ملامح المجتمع والفرد من خلال نشر مفاهيم معينة للحب، للجمال، للصداقة، للإخلاص، للثقافة، للنجاح، للهوية، للخيانة، للغدر ...مفاهيم كانت تُعلم وتنشر وتُرعى في المدارس والجامعات وفي المنتديات الفكرية والثقافية، وفي المجلات والجرائد، وفي الروايات والأفلام، فقد كانت الروايات الرومانسية لفيكتور هيجوVictor Marie Hugo (1802-1885) كالبؤساء مثلا تحدد معاني مثل: العطف، الحب، الهوية، الإخلاص، الصبر. هذه الروايات تزامنت مع عصر الحداثة الثقيلة، فالأديب والروائي تشارلز جون هوفام ديكنز (Charles John HuffamDickens) المشتهر برواية (الآمال العظيمة Great Expectations) تزامنت مع العصر الفيكتوريThe Victorianera الذي هو عصر الثورة الصناعية الأولى في العالم، فالحداثة الصلبة نحتت مفاهيم صلبة عن الإنسان والعالم من خلال القادة والمعلمين والمثقفين، فهؤلاء هم الذين يتصورون القيم، وهم الذين يحددون الخطأ والصواب، ويميزون الذوق الرفيع عن الذوق السوقي، والعلمي والجيد عن المبتذل والسافل. تلك المصادر الصلبة والمعترف بها من طرف الفرد والمجتمع حددت تصرفات الأفراد واستهلاكهم، وهذا ما عزز هوية صلبة للفرد، هوية يثق بها لأنّ مصدرها موثوق فيه.

نعم، مارست الحداثة نقد وتذويب لمفاهيم وتصورات القرون الوسطى ولكن من اجل إحلال قيم ثقافية صلبة جديدة ف" كانت الثقافة شيئا يفعله بعض الناس (النخبة المتعلمة والقوية ) أو كانت تنوي فعله لغيرهم (الشعب أو عامة الناس المحرومين من التعليم والقوة) وهكذا كانت الثقافة الفرنسية فكرة مسيحانية خلاصية في أيامها الباكرة ، وكانت تشير الى نيات رعوية تبشيرية: التنوير ، وفتح الاعين، والهداية، والتهذيب وتحقيق الكمال"[15]. فالمثقف قبل قرن من الزمان، بوصفه عنصر ينتمي إلى الصفوة، هو الذي أوكلت إليه مهمة تحديد معايير القيم، وهو وحده من يحدد مكان تواجد الجمال والثقافة

الراقية "وتنفرد الصفوة المختارة بتقرير مكان البحث عن الجمال، في الأبرا لا في قاعات الموسيقى الترفيهية، ولا أمام دكاكين السوق. في صالات العرض ، لا في جدران المدينة " [16]

كان مفهوم الثقافة في معناها الأصلي معرفة من اجل التغيير الاجتماعي، أما من ينتجها فهو المثقف الذي يملك الحق في تقرير ما هو رفيع وسامي وجميل بتمييزها عن الكثير من الأعمال التي تقدم نفسها أنها ثقافة[17]. هكذا فإنّ المثقف بشكل عام كان يحمل رسالة تتوجه لرعاية العوام من الناس والسوقيين الذين لم يبلغوا مبلغا من العلم والمعرفة والثقافة ، فالمثقف هو الراعي والزارع والفلاح والمنتج أما بقية الناس فهم بمثابة الأرض التي يشتغل عليها فعل البذر والزرع . لقد افترض مفهوم الثقافة في عصر التنوير " تفرقة بين المعلمين الذين يدعون إلى تثقيف الأرواح والكثرة موضع التثقيف، بين الأوصياء والقصّر، بين القادة والمقودين، بين المعلمين والمتعلمين، بين المنتجين والمنتجات، بين الذوات الفاعلة والموضوعات المستهدفة " [18]وسبب ذلك أنّ ظهور الدولة الحديثة الجديدة مكان الدولة الثيوقراطية والتي تعتمد على الأساقفة والرهبان في إرساء الفضاء الثقافي والديني، أجبر الدولة الحديثة على الاعتماد على مثقفين ينشؤون ويؤسسون لمجال ثقافي جديد، مجال يلغي أو على الأقل يكون بديلا للمجال الثقافي الديني ، فأصبح من يقوم بمهمة الراهب والأسقف ورجل الدين هو المثقف، الذي يجب أنْ ينشر ثقافة حداثية وعلمية وتوعوية يخرج الناس من أوهام الخرافة والأسطورة الى الفكر الجديد الملائم لطبيعة الدولة الجديدة ف" مشروع التنوير استخدم الثقافة باعتبارها نشاطا يشبه فلاحة الأرض أداة أساسية في بناء أمة ودولة وأمة/دولة ، وفي الوقت نفسه استأمن الطبقة المتعلمة على هذه الأداة" [19]

## 5.دور المثقف في الحداثة السائلة:

في الرأسمالية الخفيفة " لم يعد يوجد خلاص على يد المجتمع ...فالخلاص والخسران كلاهما من صنع الفرد، ولا يهتم بهما إلا وحده، إنهما محصلة ما يفعله المرء، الفاعل الحر بحياته كما يشاء"[20]. لقد تحرر الفرد من أي سلطة عليا فوقيه، فلم يعد للقائد أو للمعلم/ الأستاذ، أو المثقف أي دور محدد وحاسم في توجيه الفرد والمجتمع، لقد تراجع دور المثقف والقائد والزعيم وأصبح ينادى اليوم بموت المثقف والنص. إذن يتعلق الأمر بإيلاء الفرد سلطة على نفسه، ولا دخل للآخرين في قراراته. لقد انتهى زمن الوصاية على الفرد وكل خطاب يدّعي الوصاية يتهم بكونه يريد تأسيس كنسية جديدة، فزمن الأنبياء الموجهون المشفقون المنقذون، قد مرّ عهده على البشرية، والفرد وحده قادر على اختيار هويته بما يريد. فقد توجه المجتمع المابعد الحداثي إلى تقديس سلطة الفرد على نفسه، وفصله عن المجتمع بل حتى هذا الفرد يجب أن ينأى بنفسه عن شؤون الآخرين، فما يهم هو وضعية الأنا في العالم وعلاقاتها بالأشياء. وعليها أنْ تهتم بحياتها الخاصة، أمّا الاهتمام بالآخرين وبمشكلاتهم، فليس إلا عدم معرفة بالحياة الجيدة " فلن يكسب المرء شيئا من عونه للناس، بل إنّ عونه للناس يشتت انتباهه عن مصالحه التي لا يمكن أنْ يرعاها سواه"[21]. لذا ظهرت كتب في هذا المجال ككتاب وداعا للاعتماد المرضي على الآخرين

Codependent No Moreوكتاب الحصن الأمامي، كلها تنظّر لفكرة اعتماد الفرد على نفسه والاستقلال عن الآخرين [22]

يتعلّق الأمر بتفكيك العلاقات الاجتماعية القديمة، فالأفراد في الثورة الفرنسية نادوا بشعار الأخوة التي تعني التآزر والدعم والإحساس المشترك فلكي "يحققوا السعادة كان الناس بحاجة أنْ يكونوا أحرارا، متساوين، وأخويين لأنّ التعاطف والدعم المتبادل بين الأشقاء حق يأتي مع الولادة" [23]فأصبح الفرد في زمن الحداثة السائلة لا يهمه غير نفسه، إنّه منهمك في التفكير في كيفية إنقاذ نفسه من تغيرات الواقع ومن مفاجآته، وفي التفكير في العيش وتجريب الممكنات اللانهائية التي تعرضها الحياة، فليس هناك متسع من الوقت للتفكير في شؤون الآخرين.

هكذا قد ظهر تحول في مفهوم الثقافة في زمن الحداثة السائلة، التي لا تعترف بالحدود ولا بأي شيء قيمي صلب، فأصبحت تهتم بإنتاج بضائع من اجل إثارة عدد اكبر من الناس، حيث تحررت من القواعد الإلزامية ومن الواجبات ، تماشيا مع منطق السوق الاستهلاكي.ف" مجتمعنا اليوم هو مجتمع المستهلكين ، وفيه تظهر الثقافة نفسها، مثل كل شيء في العالم الذي يعيشه المستهلكون، باعتبارها مستودعا للبضائع الاستهلاكية ، تتنافس جميعا لجذب الانتباه الخاطف المستنزف لدي الزبائن المحتملين" [24]

وهذا ما نلاحظه في العالم العربي اليوم، حيث انتقل المثقف من إنتاج أعمال ثقافية /أدبية تحمل هم تغيير المجتمع والأمة، إلى أعمال من اجل الإغراء والشهرة السريعة، إنّ أعمال المنفلوطي ومصطفى صادق الرافعي وإيليا أبو ماضي ومصطفى العقاد كانت بالإضافة إلى بعدها الأدبي والجمالي الساحر، أعمال تحمل هم النهضة والتغيير في العالم العربي. بينما نلاحظ اليوم انتقال المثقف إلى الاشتغال على إنتاج شيء للاستهلاك السريع، كروايات الحب الممنوع والنزوع نحو معالجة المواضيع المحرمة/الطابو في المجتمع الإسلامي، لا من اجل معالجتها علميا وموضوعيا بقدر ما يتم السعي إلى تسليط أضواء الشهرة على هذا النوع من الأعمال وجلب أكثر عدد من المبيعات. كان هم المثقف الصلب هو تحقيق استقلال الوطن، وتحقيق النهضة، والقضاء على السلوكات اللاخلاقية من خلال الأعمال الجمالية، أو الفكرية، فإن مثقف اليوم هو مثقف سائل لا يتحدد بهدف معين بقدر ما يتحدد بإثارة الإغراء وجذب عدد أكبر من القراء، من أجل الصخب الإعلامي والجماهيري وتصدر المشهد الثقافي متخطيا الالتزام بضوابط جمالية وقيمية وحضارية ف" ليس لثقافة الحداثة السائلة من شعب تنيره وترتقي به، ولكن لهم زبائن تغريهم. فالإغراء على العكس من التنوير والارتقاء بالنفس، ليس مهمة واحدة ومنفصلة يقوم بها المرء مرة وللأبد بل هو نشاط مفتوح لا نهاية له، فليست وظيفة الثقافة هي اشباع الحاجات القائمة، بل خلق حاجات جديدة " [25].

## 6.الثقافة الصلبة والثقافة السائلة:

يرى باومان أنّ حيانا الثقافية الراهنة لم يعد نجد فيها ذلك الفصل النهائي بين الذوق الرفيع والذوق الوضيع، بين أعمال تستحق القراءة والاهتمام والدراسة، و أعمال سوقية وتجارية بحتة، لقد انتشرت الكثير من المواقع التي يتاح فيها لغير المثقفين أن يعبروا فيها عن آرائهم ويظهرون عليها أعمالهم بكل سهولة، قنوات خاصة على اليوتوب، وعدد غير محدود للقنوات التلفزيونية ، ومواقع لعرض وطباعة الكتب الكترونيا وورقيا، ومسرحيات وأدوار فردية أو ثنائية تؤدى في البيت وعلى المباشر، هكذا لم تعد الثقافة منحصرة بالنخبة بهؤلاء الذين يعرفون معاييرها وبجمالياتها، والذين يحددون بمعايير صادقة الثقافة الراقية ويميزونها عن الثقافة الوضيعة والسوقية، فلقد أتاح الفضاء الاتصالي الشبكي العام (اليوتوب والتيكتوك خاصة) لكل شخص مثقف أو غير مثقف أن يعبر عن رأيه وما يعتبره إبداعا أمام جمهوره، ولم تعد مهمة الثقافة تحمل معنى عاملا للتغيير الاجتماعي، بل أصبحت الثقافة هي كل ما يجلب الانتباه وما يثير المشهد الإعلامي، حيث نلحظ استقبال القنوات التلفزيونية الرسمية لمشاهير التواصل الاجتماعي الذين تصدرت قنواتهم المواقع، فيكون الثقافي ليس مبنيا على ما هو جمالي ومحدد سلفا بمعايير محددة بل هو الذي يتصدر المشهد الرقمي والتواصلي، فالثقافة السائلة إذن ليست مبنية على قواعد جمالية ولا على ما تطرحه من أفكار بناءة للمجتمع، بقدر ما هي مبنية على قاعدة الشهرة وتصدر المشهد الرقمي وما تجلبه من الربح والخسارة المادية. فالثقافة السائلة ليس لها مشروع هادف وإنما تسير نحو قانون سوق العرض والطلب وهذا يأتي ضد ما أنشأت الثقافة لأجله في بداية الأمر " فمصطلح الثقافة قد دخل اللغة باعتباره اسما لنشاط هادف عند بداية العصر الحديث ومصطلح الثقافة ضمن عائلة دلالية من المفاهيم التي تشمل مصطلحات مثل الحراثة الزراعة، الاستيلاد وكلها تدل على التحسين والوقاية من الفساد وكبح الانتكاس ، ما يفعله الفلاح بالبذور على طول الخط بدءا من الغرس إلى البذر إلى الحصاد عبر رعاية يقظة مستمرة، يمكن ويجب أن يمارس مع الكائنات البشرية البدائية من خلال التعليم والتدريب" [26]

وإذا كان الفلاح هو الذي يقوم بفلاحة الأرض، فإنّ المثقف هو الذي يقوم بفلاحة البشر، من خلال الرعاية اليقظة والمستمرة، وقد تحالفت الثقافة والإدارة من أجل تغيير الناس نحو وضع أفضل، فالدولة احتاجت إلى الثقافة لكي تنشر التنوير على قطاعات واسعة من الجماهير كالديمقراطية وحقوق الإنسان ومفهوم الجمال والقيم والعمل الدءوب، ففلاحة البشر كان هدف الإدارة[27]. ولكن يبدو من الواضح أنّ الإدارة لم تعد تهتم بهذا المسعى وهو تغيير البشر وتوجيههم نحو وجهه تربوية وقيم سامية بل أصبحوا " وسطاء لقوى السوق أكثر من كونهم سلطات لبناء الأمة" [28]

بدأت تتحول الثقافة من معناها الأصلي بوصفها بحث عن معنى الجمال وتجسيده في الأعمال الثقافية كالمسرح والرسم والرواية والشعر والفكر من أجل تغيير الوضع الاجتماعي وهذه الثقافة

النخبوية تخضع لشروط صارمة في قبولها من مجتمع النخبة المثقفة، نقول تحولت إلى ثقافة سائلة تستجيب لمتطلبات عصر الاستهلاك الذي يقوم على تدوير السلع والتخلص من النفايات، وهذا يعني " إخضاع الإبداع الثقافي لمعايير السوق الاستهلاكية ومقاييسها ..لنلاحظ أنّ كون الطلب الاستهلاكي متقلبا ونزويا وسريع الزوال وبشكل واضح فإنّ سجلات قوانين السوق الاستهلاكية حول المنتجات الفنية زاخرة بالتوقعات الخاطئة والتقييمات غير الدقيقة والقرارات الباطلة"[29]. فالعمل الثقافي الأصيل لا يمكن أنْ يقيم من خلال قدرة تحقيقه لمبيعات كبيرة في السوق وإنما من خلال ما يحققه من جمالية وقيمة ثقافية، فالسوق لا يمكن أن تكون معيارا لمعرف قيمة الكتب والمسرحيات، فالكتاب هو جيد في الثقافة السائلة من خلال ما يحققه من مبيعات وربح، أمّا في الحداثة الصلبة فهو ما يحمله من قيمة للمجتمع وللتاريخ الإنساني

## 7. الثقافة السائلة والهوية الفردية:

ما يميز الحياة المعاصرة أنها تعرض على الفرد الكثير من الإمكانات اللانهائية لأجل الاختيار ، لذلك فإنّ الهم الذي يشغل الإنسان المعاصر إنما كيفية تنفيذ واستهلاك وتجريب الممكنات والاحتمالات المعروضة، فليس هم البشر اليوم هو الاستمرار على ما هم عليه، بل همهم هو كيفية تجريب مختلف المعروضات لأنّه " إذا امتلك المرء السرعة المطلوبة، فبوسعه أنْ يستهلك الأبدية بأسرها داخل الحاضر المستمر للحياة الأرضية"[30]. لم يعد هناك الحديث عن ثقافة صلبة مستمرة وخالدة تتجاوز الأزمنة بل أصبحت الهوية الجديدة تتوق إلى كيفية اغتنام الزمن الدنيوي " فإذا استطاع المرء أنْ يتحرك بسرعة كافية وأنْ يجري من دون توقف فبوسعه أنْ يفوز في زمن الحياة الفانية بحيوات عديدة، وجديدة ربما بعدد الحيوات التي يمكن أنْ تهبها الأبدية "[31]. وإذا كان زمان الآخرة مُلغى من حساب الأفراد، فلا حاجة لمبادئ أخلاقية وإيمانية تلتزم بها الهوية، لأنّ هذا الالتزام يعني استمرار الهوية على أفكار وتصورات واحدة، والمطلوب هو ضرورة وجود ثقافة سائلة تلبي طموحات الهوية السائلة، فمهمة المثقفين اليوم ليست إنتاج ثقافة ومفاهيم صلبة تدوم للأفراد إلى الأبد كمعرفة يواجهون بها تحديات الحياة بل تحولت مهمتهم إلى إنتاج ثقافة تلائم الفردية الجديدة المتعشّقة بتدوير الهوية في كل مرة، والمقتنعة بمبدأ رمي الذات القديمة. وبعبارة أخرى الاشتغال والانهمام بتدوير الهوية معناه طلب ثقافة استهلاكية، تساعد على تحقيق إشباعا لرغبات الفرد في تغيير هويته، وما دام الفرد يهتم بلحظته الراهنة فهو غير مشغول بالقيمة الجمالية ولا بطبيعة القيم ، فاستهلاك الثقافة هو تماما كاستهلاك السلع يتم التخلص منها سرعان ما تنتهي صلاحيتها. فالمنتجات الثقافية أصبحت تحمل علامات تجارية وتديرها شركات كبرى ولا ينظر في بعدها القيمي والتثقيفي بقدر ما ينظر في قدرتها على تحقيق مكاسب وأرباح مادية.

إنّ ما تريده الشركات الكبرى اليوم هو هوية مائعة تسارع لأجل تغيير مبادئه، التي تحتاج إلى ثقافة سريعة التدوير، ففي رأي المتشبعون بالثقافة السائلة: الفلاسفة والأدباء والمثقفون الذين يتكلمون بعمق

وبتحليل أكثر من اللازم، يفتقدون لرؤية الحياة في بساطتها فهي أبسط من أنْ ننظر إليها من منظور أعمق من ظاهرها المعطى، فهؤلاء يزيدون الأشياء تعقيدا، الفلسفة المقبولة هي أنْ نسير وفق منطق الحياة، نتغير كما تتغير، نكون أكثر مرونة، نبتعد عن الصلابة المهلكة، فالحياة اليوم هي أكثر سرعة ولا تنتظر من يتوقف قليلا. لذلك نحتاج إلى معرفة بمتغيرات الحياة وليس تأملا في الحياة كما يفعل الفلاسفة، نحتاج إلى معلومات تمكننا من مواكبة الجديد " وحتى يحقق المرء الاستفادة التامة من الأشياء بأكمل وجه فانه يحتاج بكل وضوح إلى الكثير من المعلومات المحدثة على الدوام"[32]. أي إلى ثقافة استهلاكية

وعالم اليوم لا يحكمه منطق بين وواضح ومعلوم مسبقا، فكل شيء فيه يخضع لعنصر المفاجأة. وإذا كان الأمر كذلك، فلماذا الاهتمام بمعرفة طويلة المدى، وإرهاق الفكر بمعرفة لا نفع فيها؟ وكأن لسان حال الإنسان المعاصر يقول:" علي أنْ أنسى معظم ما تعلمته، وعلي أنْ أتخلص من الكثير من الأشياء والميول التي أبرزها وافخر بها...الخيارات التي تعد اليوم منطقية والأجدر بالثناء، ستكون موضع تهكم غدا بوصفها تخبطات سخيفة ومخجلة. ما يعنيه ذلك أنّ المهارة الوحيدة التي احتاج امتلاكها هي المرونة، مهارة التخلص من ...مكتسبات الماضي التي تحولت الى أعباء وتلافي الالتزام بولاءات تمتد مدى العمر" [33]

ولكن بما أنّ التحديث لم يضع حدودا واضحة لعمليات الإذابة للمبادئ وللقواعد التي تنظم الروابط الاجتماعية والثقافية تحوّل " أفق التحديث إلى نشاط صاخب مضطرب مهوّس ومهووس بعمليات الإذابة والتمييع ومن ثم فإنّ إزالة خط النهاية من افق التحديث هي ما تميز الحداثة في المرحلة السيولة عنها في مرحلة التحديث" [34]ومن الواضح أنّ الهوس بتفكيك الهويات والكليات وما هو مقدّس أصبح موضة فكرية، لها رواج في الكثير من بلدان العالم، فالهوس بتفكيك المقدس وتدميره لدى المتلقي جعل الساحة خالية، لاستبداد سلطة مستبدة أخرى جديدة وهي سلطة الشركات الاقتصادية الكبرى، فهذه الشركات تبحث عن ثقافة استهلاكية سريعة الاستهلاك وتقوم على النبذ والتخلص لأنّ الثقافة الصلبة تشكل نوع من المقاومة لفكرها ومسارها . وقد نقل لنا زيجمونت باومان نصا لأحد السياسيين يتكلم فيه عن مستقبل التعليم بقوله: "إنّ الهوية من أجل الهوية صفقة خاسرة ...فالغاية النهائية من المدارس والجامعات تتمثل في زيادة النمو الاقتصادي ومساعدتنا على التنافس مع شركائنا الأوروبيين ...أما التاريخ القديم والموسيقى والفلسفة وما إلى ذلك من المجالات التي تزعم أنها تعزز التنمية الشخصية لا المصالح الاقتصادية والسياسية فقلما تضيف الى ارقام النمو ومؤشرات القدرة التنافسية ففي العالم الواقعي الذي يشبه الصفقات عالم يلهث وراء الربح الفوري وكل شيء لا يثبت نفعه الأداتي صفقة خاسرة" [35]

هكذا نجحت السياسات التي اتبعتها الحكومات الرأسمالية في إنتاج ثقافة يتحكم فيها منطق السوق، وتوليد هويات يمكن استثارتها من خلال ما يعرض في الأسواق، هويات متلهفة لكل ما هو جديد، فالطوابير من أجل شراء آخر منتج هو ما ميز أحداث الثمانينات والتسعينات والألفية الثالثة، فعندما

يتم الإعلان عن بدء بيع حواسيب بيل غيتس، أو هواتف الايفون. تجد الأفراد متلهفون في اقتناء هذا المنتوج، ويترقبون أي جديد تصدره الشركة في هذا النوع من الصناعة الذكية، وهم كثيرا ما يستبدلون ويفاضلون بين هذا المنتج أو ذاك. يتعلق الأمر بأنّ الشركات نجحت في تحديد مفهوم سعادة الفرد الذي تقزّم في اقتناء هذا المنتوج والاستفادة من خدماته. والسوق لا يعرض فقط المنتجات والوسائل، بل أيضا مجموعة دورات في التنمية البشرية، وكل دورة لها عنوانها: كيف يمكن أنْ تتخلص من الألم والكآبة، ودورة أخرى عنوانها: كيف يمكن أنْ تقيم علاقات مع الطرف الآخر.... حيث أصبحت الثقافة البديلة لأجل الهوية المائعة تباع في السوق، من خلال دروس تنمية البشرية التي تقدم دروسها بالمال.

يقول باومان زيجمونت "السوق الاستهلاكية تفضل الدورات السريعة لرأس المال وتشجعها كما تحبذ اقصر فاصل ممكن بين استخدام المنتج والتخلص منه من اجل تقديم بدائل فورية للبضائع التي فقدت قدرتها على تحقيق أرباح كبيرة ...وهذا التوجه يتناقض بشدة مع طبيعة الإبداع الفني ..ذلك لأنّ إخضاع الإبداع الثقافي لمقاييس السوق الاستهلاكية ومعاييرها يعني إرغام الأعمال الفنية على قبول شروط المفروضة على أية أعمال تتطلع الى مرتبة البضائع الاستهلاكية أي أن تبرر نفسها بقيمتها الاستهلاكية الحالية"[36]

فمواكبة الحداثة في صيرورتها تعني: تدمير الذات القديمة، وإعادة تهيئتها من جديد بما يتناسب مع المستجدات، فليس هناك غير التغير الذي لا مناص منه، فإذا ما أرادت الذات أنْ تجد اعترافا من الآخرين، وتجنب نفسها ذلك الاحتقار الاجتماعي، فيجب أنْ يفكر المرء كما يفكر العصر، كما يفكر المشاهير، وإلا لأضحت منبوذة. وهذا معناه استهلاك ثقافة جديدة كل يوم: موضة جديدة، معلومات محدّثة، أفكار عن تنمية الذات، أفلام وموسيقى جديدة " فلكي يمارس المرء فن الحياة، لكي يجعل حياته عملا فنيا، يتطلب في عالم حداثتنا السائلة أنّ يكون في حالة من التغير الدائم، أنْ يستمر في إعادة تعريف للذات، تحوله إلى شخص غير الذي كانه حتى تلك اللحظة، ولكي يصير شخصا آخر، على المرء أنْ يتوقف عن أنْ يكون ما كانه ، أنْ يحطم شكله السابق، ويتخلص منه مثلما تفعل الأفعى بجلدها، أو المحارة بقشرتها رافضا، وآملا أنْ يمسح الشخصيات المستعملة والمستهلكة والضيقة، أو غير المُقنعة واحدة بعد الأخرى" [37]

## 8.خاتمة:

لعب المثقف في العصر الحديث الذي كان أداة بيد الدولة / الإدارة في توجيه وتحديث المجتمع الأوروبي حيث عملت الطبقة المثقفة على نقل المجتمع من صبغته الدينية المتحجرة إلى مجتمع مدني حديث، كان دور المثقف في هذه المرحلة رساليا، ونضاليا، وخلاصيا وكانت توظفه الدولة في تنوير سياساتها للجماهير التي تعيش في ظلامية معرفية، بل واستخدم في لعب دور المنظر الإيديولوجي للاستعمار وتبرير فكرة التفوق العرقي للأوروبيين على غير الأوروبيين، وظهرت مفاهيم كالشرق والغرب،

العنصر الآري والعنصر السامي، وهذه المفاهيم ليست إلا من إنتاج فلاسفة وعلماء الاجتماع والتاريخ الأوروبيين. هكذا احتاجت الرأسمالية الثقيلة، إلى المثقف الصلب الذي ينتج مفاهيم صلبة ومحددة من أجل تبرير سياسات الاصلاح في الداخل والاستعمار في الخارج.

لكن الرأسمالية عرفت تحولا جوهريا في بنيتها فانتقلت من حالتها الثقيلة إلى حالتها الخفيفة التي تعتمد على وسائل الاتصال الشبكية ، هكذا تغيرت رسالة المثقف من مهمة رسالية تسعى إلى تغيير المجتمع إلى مثقف سائل يسعى إلى الحفاظ على الوضع الراهن، والى تعزيز وضع الاستهلاك الراهن، أما الثقافة فانتقلت من الأعمال التي لا تحدد إلا بمعايير نخبوية دقيقة إلى ثقافة تستجيب لمتطلبات السوق. خضع المثقف لواقع الرأسمالية في أوروبا، وإذا كانت الرأسمالية الثقيلة قد أنتجت على مستوى التصورات والفكر حداثة صلبة حمل صياغتها مثقفو عصر التنوير والحداثة فإنّ الحداثة الخفيفة والتي يمثلها بيل غيتس أنتجت على مستوى التصورات حداثة سائلة يمثلها المثقفون الجدد وهم المشاهير والأثرياء ورواد التواصل الاجتماعي

## 9. قائمة المراجع:


1- كرم، يوسف، العقل والوجود، مؤسسة هنداوي، القاهرة، مصر ، ط1، 2014، ص30

2- باومان، زيجمونت، الحداثة السائلة، تر حجاج أبوجبر، المؤسسة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، ط1، 2016، ص44،43

3- باومان، زيجمونت، الثقافة السائلة، المؤسسة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، ط1، 2018،ص17

[4]-المصدر نفسه، ص 71.

[5]-زيجمونت باومان، الحداثة السائلة، ص21.

- المصدر نفسه، ص 42.[6]

7- المصدر نفسه، ص 176

- المصدر نفسه، ص 179. [8]

[9]- المصدر نفسه، ص 171

- باومان، زيجمونت، *الثقافة السائلة*، ص30.[10]

- باومان، زيجمونت، الحداثة *السائلة*، ص [11]112

[12]- المصدر نفسه، ص 113.

[13]-المصدر نفسه، ص 114

-المصدر نفسه، ص [14]115

- باومان، زيجمونت ، الثقافة السائلة، ص [15]89

[16]-المصدر نفسه،ص 14.

- المصدر نفسه،ص [17]15

- المصدر نفسه،ص 16. [18]

[19]- المصدر نفسه،ص 17

- باومان، زيجمونت، الحداثة *السائلة*، ص [20]117

- المصدر نفسه،ص [21]118

[22]- المصدر نفسه،ص 119.

- باومان، زيجمونت، الاخلاق في عصر الحداثة السائلة، ابو ظبي للسياحة والثقافة، أبو ظبي، ط1، 2016، ص 159. [23]

- باومان، زيجمونت، *الثقافة السائلة*، ص [24]21

[25]-المصدر نفسه، ص23

- باومان، زيجمونت، الاخلاق في عصر الحداثة السائلة، ص [26]256

- المصدر نفسه، ص [27]257

[28]- المصدر نفسه، ص 269

- المصدر نفسه، ص [29]270

- باومان، زيجمونت ، *الحياة السائلة، ص* [30]29

- المصدر نفسه، ص [31]29

- المصدر نفسه، ص [32]119

- باومان، زيجمونت ، الاخلاق في عصر الحداثة السائلة، ص [33]174

- باومان، زيجمونت ، الحداثة السائلة، ص 22. [34]

[35]- باومان، زيجمونت، الثقافة السائلة، ص 54

- المصدر نفسه، ص 100. [36]

[37]- باومان، زيجمونت، الاخلاق في عصر الحداثة السائلة، ص 183، 184.